(٨)

أشرف وظائف المرأة

العدد (٣١) رجب (١٣٨٧هـ) أكتوبر (١٩٦٧م)

التلطف مع الإناث والرفق بهن آية اكتمال الرجولة ونماء فضائلها، وهو أدب يبذل للنساء عامة سواء كن قريبات أم غريبات، كبيرات أم صغيرات، ومع استقامة الفطرة الإنسانية قلما يتخلف هذا المسلك العالمي.

وليس مرده- فيما نرى- الرقة لضعف المرأة وإسداء الجميل لها، بل مرده إحساس الرجال بأنهم أهل الثقة وموضع الفضل، وأنهم عند حسن الظن إذا طلب الضعيف الحمى أو طلب القلق الأمان!

والغربيون يترجمون هذا الإحساس بتقديم المرأة على الرجل في الخطاب، وتقديمها عليه في الدخول والخروج والجلوس وغير ذلك، وهو ضرب من المعاملة ظاهره الإيثار، وإن كان باطنه مثقلًا بالأوزار.

ونريد أن نتأمل في أساليبنا- نحن العرب والمسلمين- مع المرأة، وأن نقابل بين ما انتهى إليه الإسلام في هذا الشأن وبين ما وصل إليه مفكرو الغرب، ونقدة الحضارة الحديثة، ومن الخير أن ننفي أولًا زعمًا شاع بين الناس أن العرب في جاهليتهم كانوا يهينون الأنثى، ويغضون من مكانتها، نعم هناك سفهاء صنعوا ذلك وعرفوا به، بيد أن الأمم لا تؤاخذ جملة بما يقترفه رعاعها، كيف والشعراء العرب ما كانوا يفتتحون قصيدهم إلا بالغزل؟ مستعرضين شمائلهم أمام من أحببن، أو متغنين بمآثر نسائهم خلقًا وخلقًا، واسمع لعمرو بن معدي كرب يقول:

لما رأيت نساءنا ... يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي ... تخفى وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم ... أر من نزال الكبش بدا

وعمرو الذي يرغب أن يبدو في أشرف أحواله أمام حبيبته بدأ قصيدته تلك بقوله:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معـادن ومناقب أورثن مجدا

ويقول عمرو بن كلثوم، يصف نساء قومه وموقفهن عند احتدام المعارك:

على آثارنـا بيـض حسـان نحـاذر أن تقسـم أو تهـونا
ظعائن من بني جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينا
يفتن جيادنا ويقلن: لسـتم بعـولتنا إذا لـم تمنـعـونا

وليس يزري الأمة العربية إن كان بها من وأد البنات، ففي عصرنا هذا، وفي أزهى عواصم الغرب يظهر بين الحين والحين سفاحون مولعون بقتل النساء خاصة، بعد ختلهن بالألفاظ المعسولة، وبعد قضاء ما يبغونه من وطر، وهذه المآسي الفردية لا تتحمل سعة الدلالة، ولا يعدو عارها مرتكبيها.. واحترام العرب لنسائهم جاء ثمرة نضج الذكور، وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة، فالمرأة إما زوج حانية أو أم مربية، أو في طريقها إلى هذا المصير النبيل.

ووظيفة «ربة البيت» من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار.. أليست هي حضانة الأجيال الجديدة وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتًا حسنًا؟ إن تصور المرأة في البيت إنسانًا قاعدًا لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأسرة، وتصور ربة البيت إنسانًا يجيد الطهي والخدمة فقط ضرب من السلوك الحيواني عرفته الأمم إبان انهيار حضارتها وسقوط مستواها العام.

ولقد كانت المرأة في صدر الإسلام- كما سنرى- ربة بيت من طراز رفيع، وما منعها ذلك من أن تكون في قمة الثقافة والاستقامة الاجتماعية، والنهوض بأمتها والانتصار لدينها.

جاء الإسلام العظيم، ومست رحمته حياة المرأة، فرد عنها طغيان القساة من الرجال وحرر إنسانيتها روحًا وجسدًا حين أتاح لها أن تتزود من العلم ما تشاء، وحصن حقوقها المالية حتى لا تذهب بها أثرة الأقرباء أو الغرباء، وربطها برسالة الأمة الكبيرة ودعوتها العامة، فهي في السلم أو الحرب عنصر فعال، وظهير قوي، وفي نطاق تعاليم الإسلام لا يقل وعي المرأة عن الرجل بقضايا الدين والدنيا، وما كان نساء الصحابة والتابعين جاهلات بكفاح الإسلام في أرجاء الجزيرة ضد الوثنية، أو جاهلات بكفاحه بعد ضد الفرس والروم.

ولكن توزيع الأعباء أعطى كلا الجنسين نصيبه من العناء دون تعسف، والإسلام يعرف المرأة قبل كل شيء ربة بيت وزوجة بطل وأم شهيد.. ويرفض تجنيد النساء للترفيه كما فعلت أوروبا في حربها الأخيرة، وكما تفعل في سلمها.. والملامح النبيلة للمرأة المسلمة تراها في الخنساء، التي جاهدت في حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية الهائلة.. اشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى، جمعتهم وزودتهم بنار من الإيمان، ونور من اليقين في كلماتها الخالدة المأثورة.

إن رائدات النهضة النسائية في بلادنا أقصر باعًا وأنزل رتبة من أن يفقهن هذا المثل.

فإحداهن تكره أن تكون أمًا لأربعة ولو فرضت عليها الأقدار أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيتهم وتوصيتهم حتى يبلغوا هذه الذروة.

إنها تريد أن تكون «رجلة» تتولى عملًا في المجتمع من هذه الأعمال التي تليق بالجنس الخشن، ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها بشيء طائل.

وعندما يقال لها: تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل، وتنشئة الذرية الوافدة، يتورم أنفها ضيقًا وغيظًا. وربما قال قائل: هي في ذلك على حق، ويجب تذويب الفوارق المفتعلة بين الذكورة

والأنوثة، وترك المرأة تلج كل ميدان وتلي كل عمل، ويجب التغاضي عن ضعفها الموقوت، لأنه أثر القيود التي شلت حيويتها من قديم، وعندما تستوي مع الرجل على الركب وتتكافأ أمامها الفرص فلن تكون الأنوثة عائقًا عن منصب ما.

ونحن لن نرجع إلى الفقهاء الأقدمين نستلهمهم الإجابة على هذه الشبهة، وإنما نقتطف نبذًا من كلام العالم الفيلسوف «الكسيس كاريل»، فيها من الحقائق المقررة وما يدحض هذه الأوهام، قال: «للغدد الجنسية وظائف أخرى غير الدفع لإتيان عمل من شأنه حفظ الجنس، فهي تزيد أيضًا من قوة النشاط الفسيولوجي والعقلي والروحي.. فليس هناك خصي أصبح فيلسوفًا عظيمًا. أو عالمًا خطير الشأن أو حتى مجرمًا عاتيًا، لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية.. إنها تولد الخلايا الذكرية والأنثوية وهي في الوقت نفسه تفرز في الدم مواد معينة تطبع الخصائص الذكرية أو الأنثوية المميزة على أنسجتنا وأخلاطنا وشعورنا، وتعطي جميع وظائفنا صفاتها من الشدة، فالخصية تولد الجرأة والقوة والوحشية، وهي الصفات التي تميز الثور القاتل عن الثور الذي يجر المحراث في الحقل.. ويؤثر المبيض في جسم المرأة بطريقة مماثلة، ولكن عمله يستمر فقط إبان جزء من حياتها، فحينما تبلغ المرأة سن اليأس تضمر الغدة بعض الشيء، وحياة المبايض القصيرة تجعل المرأة المتقدمة في السن أكثر ضعفًا من الرجل الذي تظل خصيتاه نشيطتين حتى سن متقدمة جدًا.

إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ إنها طبيعيًا أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محدودة يفرزها المبيض، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليمًا واحدًا، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة.. والحقيقة

أن المرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. الأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعًا لطبيعتهن من غير أن يحاولن تقليد الذكور، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب عليهن أن يتخلين عن وظائفهن المحدودة.

وهذا الكلام القائم على دراسة طبية ونفسية للجنسين معا هو الشرح الدقيق لقول رسول الله ﷺ «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال».

إن انسلاخ أحد الجنسين عن فطرته ليلحق بجنس ليس منه حرب على الطبيعة، والتواء بالأمور عن مجراها الصحيح، ولن يفيد العالم من ذلك إلا الخلل والفساد..

ومع رفضنا للنزعات المادية الواقعة في هذا الخطأ فنحن أحيانًا نلتمس عذرًا لأصحابها!

إن هناك صورة قائمة لأحوال المرأة في بعض المجتمعات تجعل الفزع منها يغري بالفرار إلى أي وجهة.

صورة امرأة تلهث وراء رجل يمتطي دابته، أو صورة امرأة تأكل ما بقي من فضلات الغذاء بعد شبع غيرها، أو صورة فتاة مقهورة الإرادة تتزوج ممن تكره أو محزونة فاقدة الميراث، لأن أهلها بطريقة ما حرموها إرثها، أو صورة بلهاء صفر العقل لا تعرف من علوم الدين ولا من علوم الدنيا شيئًا.

أو أنه لا وزن لحياتها ولا لجهدها ولا لرأيها، لأن البيئة التي أنبتتها جعلتها كذلك شخصًا كَلًّا على مولاه أينما يوجه لا يأت بخير!

هذه الصور التي التبست بأوضاع المرأة في بعض المجتمعات وحسبها المغفلون دينا وما هي بدين، بل هي رذائل ومحرمات يسخطها رب العالمين.. هذه الصور هي التي أطاشت الألباب القاصرة، ودفعتها إلى الأخذ من الحضارة الحديثة دون تبصر.

ونحن نغار على مكانة المرأة المسلمة، ونريد أن تسلم من لوثات عبيد الغرب، كما تسلم من لوثات الجامدين المقلدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

كان يجب أن نهدي الثناء المدنية الحديثة لو أنها- حين اعترفت بإنسانية المرأة- دعمت جانبها الضعيف وحفظت حقوقها المهدرة وردت عنها عدوان من ضنوا عليها بالعلم والمال، والإسهام بحظ واضح في رعاية المصالح الخاصة والعامة.

لكن المدنية الحديثة- وشارتها الأولى عبادة الحياة- أدخلت المرأة في المجتمع بطريقة مريبة!

فبدلًا من أن تحصن أنوثتها ضد العبث تعمدت إطلاق الجانب الحيواني في البشر، وجعلت من أنوثة المرأة فتنة تبعثر الإثم في كل مكان! فالملابس لا بد أن تكون قصيرة تكشف ما فوق الركبة، ضيقة تبرز الصدر والأرداف، مثيرة تغري بتفصلها وتقسيمها على النظر الحرام والفكر الحرام.. والتقاليد التي أقرتها هذه المدنية الحديثة أن المرأة تظهر في الأحفال الساهرة شبه عارية، وأنها ينبغي أن تطعم وترقص مع شخص آخر غير زوجها! وأقطار الغرب في أوروبا وأمريكا ترى أن المتعة الجسدية في كل صورها حق طبيعي للفتى والفتاة.. وفرص التلاقي لإرواء الغريزة الجنسية، سواء بالزنا أو بما دونه، متاحة لمن يشاء.

وإذا كانت البيئة المؤمنة تفرض القيود على الملابس، وتباعد بين أنفاس الذكور والإناث إلى أن يلتقي الرجل بالمرأة في بيت الزوجية، فإن المدنية

الحديثة تعمل بدأب غريب على إثارة الشهية الجنسية بالليل والنهار، في البر والبحر.. وتستفز الغرائز الساكنة لتدفعها دفعًا إلى الاستمتاع الميسور، محظورًا كان أم غير محظور..

إنها مدنية تنشد اللذة وتطوع لها كل شيء، والمسحورون بها يحق فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (**الإنسان: ٢٧**).

ولما كانت الطبيعة البشرية قد تسكن إذا نالت ما تشتهي أو قد تهدأ إذا ألفت ما ترغب فإن زبانية النشاط الجنسي يكدون قرائحهم لخلق أزياء وأوضاع جديدة تلهب الذئاب الجائعة لتنطلق في كل فج وهي تصيح: هل من مزيد؟

ومن الحق أن نقول: إن الأديان السابقة كانت أعجز من أن تقف السيل الطام.

فقد كان الإنسان بذكائه العقلي أكبر منها وأمنع من تصديق نقائضها، كما أن ميوله كانت أشرس من أن تنقاد لتعاليمها الباهتة.. أما الإسلام فكان غافيًا في بلاده محتبس الضوء بين حكام الجور، وعلماء السوء، وعباد الغفلة! ومن ثم انطلقت المدنية الحديثة في طريقها لا تلوي على شيء، تطلب اللذة على ظهر الأرض من كل سبيل، وترى المرأة أولى هذه اللذاذات التي ينبغي أن تشبع فتتملاها كل عين.. وتلمسها كل يد.. والمدنية الحديثة الآن تفرض نفسها على القارات الخمس، ويكافح بعض المسلمين في جو مربد لينقذوا أقطارهم من هذا الشرود الجنسي الطافح، ولكنهم- إلى يوم الناس هذا - يحاربون في معركة انسحاب!

إننا نرفع صوتنا عاليًا بأن من حق المرأة أن تتعلم، ولا يستطيع أحد أبدًا أن يحرمها هذا الحق.. لكن من قال: إن التبرج والاختلاط ضرورات لا بد منها في الجو العلمي؟ وإذا كان الإسلام يأذن باختلاط ما في بعض المواطن

فهو اختلاط مصحوب بالحشمة والحياء وغض البصر وتقوى الله.. وهو يرفض بتة كل اختلاط يسمح بأن يخلو رجل بامرأة.. وبالتالي فهو يستنكر أحفال العري والمجون التي عرفتها وأشاعتها المدنية الحديثة.. وللمرأة أن تعمل في وظائف مناسبة، وفي ظروف خاصة، لكن على أساس أن عملها الجليل العتيد أن تكون ربة بيت وسيدة أسرة وأن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة.. فلا يليق حشر المرأة عارية الأذرع والسيقان في صفوف الرجال!

ولا يليق توظيفها لتعرض أوراقًا على مدير يختلي بها إذا شاء.. ونحن نعرف أن المرأة في أوروبا وأمريكا اشتغلت بالمصانع والحقول والشركات والجامعات لكن حصاد اللقاء البعيد عن معرفة الله واتباع شرائعه كان مرًا.

إن المرأة قد تعمل إذا احتاجت لعمل أو احتاج إليها المجتمع.. ما يصدها عن ذلك أحد..

أما الزعم بأنها والرجل سواء في القدرات المادية والمعنوية فذلك ما ننكره، كيف وهي تلد وترضع؟ وحملها لولدها وحضانتها له يأخذان منها جهدًا مضنيًا.

ثم هي- من غير الحمل ونتائجه- تراح من العبادات المفروضة في دورات شهرية منتظمة، فكيف تكلف بالأعمال العادية وينتظر منها أن تساوي الرجل في الإنتاج؟

ولندع ذلك كله.

إن المشكلة ليست في عمل المرأة أيا كان نوعه! المشكلة في جو ذلك العمل! ولون المجتمع العام الذي يتم فيه، وهنا تبرز طبيعة الإسلام دون غضاضة.

فالإسلام دين يكلف الرجال والنساء بصلوات خمس كل يوم، وعندما تؤدى هذه الصلوات في جماعة- ولابد في كل أمة مسلمة من قيام هذه الجماعات من الفجر إلى العشاء- فإن الرجال يملأون الصفوف الأولى والنساء يملأن الصفوف المؤخرة.

وعلى النساء أن يخفين زينتهن وأن يرتدين ملابس سابغة، وعلى كلا الجنسين أن يغض طرفه إذا رأى الآخر! فإذا حدث أن نظر شخص إلى غيره نظرة مريبة وجب على من لاحظ ذلك أن ينهاه عن الإثم وأن يذكره بالله.. ومعنى هذا كله أن الاختلاط بمدلوله الواسع في المدنية الحديثة يأباه الإسلام إباء تاما ويرفضه رفضًا حاسمًا.

إن الجو الذي تعمل فيه المرأة هناك، في أوروبا وأمريكا، جو التكشف، وإبداء المحاسن، واختيار الأصدقاء، وحرية التلاقي والاختلاء، وحرية الجسد كما يقولون، أو جو نبذ الدين ظهريًا واجتياح حدوده دون نكير.. هذا الجو يستحيل أن يقبله الإسلام أو يرضى بدفع المرأة إليه.

إن الأسرة ذابت في أقطار أوروبا وأمريكا تحت اللهب الجنسي المشتعل في هذا الجو، وبقاياها التي لا يزال بها رمق لا تدل على خير، ولا تطمئن على غد طهور.

والمسلمون في فترة عصيبة من تاريخهم.. لقد داس الاستعمار بلادهم وسخر من تقاليدهم وترك طابعه الخاص على أغلب شؤونهم، وهناك كثيرون ينقمون على وضع المرأة القديم في البلاد الإسلامية، ويرون أن الاستظلال بلواء المدنية الحديثة أجدى وأفضل.. ونحن نرفض الأمرين معًا.. حبس المرأة في سجن الجهل والقصور وذوبان الشخصية وضياع المكانة، وإطلاق المرأة فتنة عاتية تنشر الإثم وتبيح المحارم.. لقد رأينا المرأة في صدر الإسلام، لا تقل عن الرجل علمًا، ولا جهدًا في خدمة دينها وأمتها وبيتها وولدها.. رأيناها في القادسية واليرموك في أشرف المواقف

وأجدرها بالتكريم.. ولم نرها أبدًا مجندة للترفيه عن الرجال، ولا رأيناها حسرت عن صدرها وركبتيها باسم العمل في المكاتب أو المصانع.

ويبقى أن نتساءل: لمن نكل وظيفة «ربة بيت» إذا استخرجنا المرأة من البيت لغير ضرورة ملجئة؟ إن هذه الوظيفة، من أرقى الأعمال- لو عقلنا- لأنها إنشاء الحياة وصيانتها وتعهدها حتى تؤدي رسالتها كاملة.

ونتساءل مرة أخرى: هل يقبل حكم الله في تحريم الزنا، وما يؤدي إليه، وما يغري به، أن نجعل الزنا- كما تقول عشيقة سارتر- أمرًا عاديًا لا يستقبح ولا يستهجن؟

إن القصة هنا ليست فتوى فرعية في مشكلة محدودة، إنما هي قصة الدين من ألفه إلى يائه.. قصة الإيمان بالله وتصديق المرسلين أجمعين!